مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 12ع 01. 16/ 01/ 2023
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

اللغة الروائية وتأثيرات الفلسفة
رواية "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ أنموذجا

Fictional language and the influences of philosophy

The novel "Ouled Haretna" by Najib Mahfoud as a model

مرين أحمد * MERINE Ahmed (ahmed.merin@univ-mascara.dz)	فلسفة	مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر- الجزائر.
خليفي بشير KHELIFI Bachir (bachir.khelifi@univ-mascara.dz)	فلسفة	مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر- الجزائر.

DOI : 10.46315/1714-012-001-006

الإرسال: 2021/01/09 **القبول:** 2021/06/30 **النشر:** 2023/01/16

ملخص: إن دراسة تأثيرات الفلسفة على اللغة الروائية يتطلب في مقام أول الاطلاع على علاقة الفلسفة بالأدب من خلال نموذج الرواية، ثم تحليل اللغة الروائية المستخدمة عبر مستوياتها المتعددة، مع التركيز على الحضور الفلسفي على مستوى الشكل والمضمون، ومن خلال العلاقة بين اللفظ والمعنى. بناءً على هذه الأهداف المعلنة جاء اخترنا لرواية "أولاد حارتنا" للروائي المصري نجيب محفوظ (1911-2006) بوصفها رواية فلسفية في مقام أول، الأمر الذي يُفضي إلى الحديث عن التصور الفلسفي للغة الروائية، من خلال المعطى الدلالي الذي توضحه مضمون الرواية وكذا علاقة اللفظ بالمعنى. محاولين الإجابة عن الإشكالية الآتية: كيف أثرت النزعة الفلسفية للكاتب والرواية على حد سواء، على اللغة الروائية في رواية أولاد حارتنا؟

الكلمات المفتاحية: الفلسفة؛ اللغة؛ الرواية؛ اللفظ؛ المعنى.

Abstract: The study of the effects of philosophy on the fictional language requires, a deep knowledge of the relationship between philosophy and literature through the model of the novel, then analyzing the fictional language used across its multiple levels, with a focus on the philosophical presence at the level of form and content, also the relationship between word and meaning. For this purpose, we have selected the philosophical novel "Children of the Alley" written by the Egyptian novelist Naguib Mahfouz (1911-2006), in order to talking about the philosophical conception of the narrative language, through a philosophical and semantic approach which revolves in the specificity of the novel, also the relation between the word and its meaning. Trying to answer the following problematic: How did the philosophical tendency of the writer and the novel affect the fictional language of the "children of the Alley"؟

Key Words: Philosophy; language; novel; word; meaning.

* - الباحث المُرسل: ahmed.merin@univ-mascara.dz

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

مقدمة:

إن اللغة بوصفها موضوعا للبحث الفلسفي، قد أخذت حيزا رئيسا ضمن الاهتمامات الإنسانية والدراسات الفلسفية والنقدية، حيث أصبحت تمثل موضوع الفلسفة الرئيس في العصر الحديث والمعاصر، خصوصا في إطار الفلسفة التحليلية التي ارتبطت في عمومها بالفلسفة الأنجلوسكسونية، والتي أثبتت حضورها مع برتراند راسل (1872-1970) Bertrand Russell ولودفيغ فيتغنشتاين (1889-1951) Ludwig Wittgenstein. هذا إضافة إلى عدد من التيارات الفكرية الحديثة والمعاصرة التي تحمل نزوعا لغويا في مقارباتها المعرفية على غرار الوجودية، البنيوية، الظاهراتية، التفكيكية والبراغماتية الجديدة.

هذا وتجدر الإشارة، إلى أن ظاهرة الاهتمام باللغة أصبحت تُعرف في أبجديات الفلسفة المعاصرة بالمنعطف اللغوي The Linguistic Turn، وذلك للعلاقة الوطيدة والمتجددة التي أصبح يُنظر لها بين الفكر واللغة، وكذا لبروز فكرة جديدة أثارها الفيلسوف النمساوي لودفيج فتغنشتاين، مفادها أن أغلب المشكلات الفلسفية هي مشكلات لغوية بالأساس(Alice Ambrose, 2004: 147 .)

والواقع، أن سؤال اللغة ارتبط بمختلف أنماط وأشكال التعبيرات الإنسانية، على غرار التعبير الأدبي، وبشكل أدق الرواية بوصفها تجليا لغويا واضح المعالم، وكذا من زاوية حضورها المعرفي المعاصر وامتلاكها سبل الريادة الثقافية لأسباب عديدة، ولعل أهمها ما يُمكن ملاحظته في الفاعلية التي أصبحت لدى الروائيين في الثقافة المعاصرة، الأمر الذي يبرره القول بأن "شموس الروائيين قد غطت أنوار الفلاسفة."

بناء على ما سبق، فإن الهدف الأساس من وراء هذا البحث يتمحور في تأمل واستقصاء الرواية في إطار تخصص فلسفة اللغة، وذلك بوصفها إحدى الأنماط المعرفية الرائدة في فهم واستقصاء اللغة ضمن الإطار الفلسفي في مقام أول، على الرغم من قلة الدراسات التي تناولت موضوع اللغة الروائية من زاوية مفهومها، وجودها، كينونتها، خصوصيتها وكذا تطورها الكرونولوجي. إضافة إلى تأثرها وتأثيراتها، آخذين بعين الاعتبار الأثر الذي حققته الرواية الفلسفية على سلم المعرفة العالمية مقارنة بالأنماط الأدبية الأخرى، لدرجة وسمها من لدن بعض المتخصصين ب: "الرواية الكونية" أو "الأدب العالمي؛" بحكم أن المقاربة الفلسفية تصور إنساني بالأساس قائم على الإنصاف والكونية، هذا ما يجعل مقاربة الأدب والفلسفة عبر تجليات مُتعددة مسألة بالغة الأهمية ومثيرة للاهتمام في مجال الدراسة

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

والنقد. خصوصا وأن الحديث عن الرواية يُعد في مقام أولٍ حديثا عن الفلسفة وعن الأدب، عن الإنسان وعن اللغة من خلال مجريات الأحداث (Michel Raimond, 1989: 19). فهي حقل تتقاطع فيه مجالات معرفية مُهمة ومُتنوعة، الأمر الذي يدفعنا إلى طرح عديد التساؤلات حول لغة الرواية المتأثرة بالفلسفة، بداية بمستوياتها مرورا بشكلها ومضمونها، وصولا إلى أفكارها ومعانيها.

سنحاول في دراستنا هذه، وفي إطار الإشكالية العامة أن نعالج عددا من الأسئلة الجزئية، على غرار: ما طبيعة اللغة الروائية المتأثرة بالفلسفة؟ وما الصفات التي تميزها عن اللغة العادية التي لا تحمل هاجس التفلسف؟ وماهي الخصائص الفلسفية للغة في رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ كونها أهم إنتاج له في مرحلته الفلسفية؟

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن البحث في هذا الموضوع يحتمل فرضيات عديدة، تتعلق بفكرة مفادها أن التفاعل بين الفلسفة والأدب ينتج لغة جديدة ومميزة لها خصوصياتها، وأن الروائيين أصحاب التكوين الفلسفي على غرار نجيب محفوظ، بحكم تخصصه في الفلسفة في تكوينه الجامعي، أكثر وعيا وإدراكا للطبيعة المعرفية والفكرية للمواضيع المنتقاة، وكذا بلغة الكتابة على حد سواء. هذا التوجه والتكوين العلمي ساعد عددا من الروائيين في هذا المجال على تحقيق الفاعلية الروائية، وذلك بالنظر إلى الدور الفعال الذي تقوم به الفلسفة، بسبب امتلاكها آليات التفكير والنقد القائم على ضرورة الشك المؤسس على مفصلية المنهج، وكذا حيازتها على نمط التفكير وخاصية المعرفة القائمة على الجدل، التعدد والتنوع. ضمن هذا السياق، تتجلى فاعلية الروائي العالمي نجيب محفوظ في إثارة كل هذه الإشكالات والإستفهامات حول روايته أولاد حارتنا، والتي تعود في مقام أول إلى عبقريته ومؤهلاته السردية على مستوى اللغة، التفكير والخيال الواسع، وكذا إلى توظيفه للرمز الديني، متمثلا هذه المرة في قصص الأنبياء، وإسقاطها بطريقة سَلسة ومُتفردة على الواقع الذي تمثله الحارة بأحداثها وشخوصها المختلفة والمتعددة نتيجة تعدد رواتها، حيث ذكر الكاتب في بداية الرواية أنه شهد فقط طورها الأخير، وسجل أغلبها عن طريق سماع الرواة، وذلك من أجل وصف هذا الواقع وتبليغ صورته للعالم. وكذا الرغبة في إصلاحه، من خلال نقده ومحاولة إيجاد حلول لمشكلاته. هذا ما يُثبته صاحب الرواية بقوله: "لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذي عاصرته، ولكني سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم." (نجيب محفوظ، 1986: 5).

أولا: التعريف بالرواية: أولاد حارتنا في مقام الوصف

صدرت رواية أولاد حارتنا سنة 1962 للأديب المصري نجيب محفوظ (1911-2006) Najib Mahfoudالحائز على جائزة نوبل للأدب سنة 1988، وقد تمت الإشارة إلى الرواية أثناء استلامه للجائزة، حيث حُظيت بكثير من الإشادة والثناء، كما أثارت جدلا واسعا، منذ صدورها على شكل سلسلة في جريدة الأهرام، ولم تنشر في مصر إلى غاية 2006، عن دار الشروق، بسبب المعارضة الشديدة التي واجهتها من طرف شيوخ الأزهر، حيث تم تكفير نجيب محفوظ واتهامه بالتجديف بسبب تناوله للذات الإلهية في شخصية الجبلاوي، بطريقة بدت للبعض مخالفة للأعراف الدينية، من خلال خاصية التجسيم بدل التنزيه. الأمر الذي سبب لنجيب محفوظ مشكلات عديدة، أخطرها محاولة اغتياله سنة 1994.

بعدما اعتزل نجيب محفوظ الكتابة مؤقتا، عاد إلى عوالمها بنمط جديد ورؤية جديدة للكتابة الروائية التي تُعد تجريبا لغويا لا يعرف الاكتمال، وقد تم اعتبار هذه الأوبة من طرف عدد من النقاد بوصفها منعطفا جديدا يؤشر لمرحلة مختلفة، تُعد انتقالا من المراحل التاريخية والواقعية نحو الفلسفية أو الواقعية التي تمتزج فيها الرمزية بالصوفية، وكانت بدايتها هي رواية أولاد حارتنا، لتليها ست روايات أخرى على المنوال نفسه، على غرار اللص والكلاب سنة 1961، ثم السمان والخريف سنة 1962، الطريق سنة 1964 وغيرها.

ولأن الكتابة الروائية تجريب لغوي وموضوعاتي لا يعرف الاكتمال، فقد اعتمد نجيب محفوظ أسلوبا مختلفا من حيث الصياغة اللغوية التي عادة ما ترتبط بطبيعة المتن الروائي الكامن أساسا في فلسفات الشخوص. هذا إضافة إلى انفتاحه على الفضاءات الكونية والإنسانية، وكذا مناقشته لمواضيع فكرية عبر من خلالها عن مواقف شخوص الرواية عن السائد اجتماعيا وعالميا.

ثانيا: استخدام الرمز والخيال: أو في الإحالة اللغوية للشأن الديني

إن استخدام الرمز والخيال في الكتابة الفلسفية والأدبية ليس أمرا جديدا، فقد حضر هذين العنصرين في النص منذ الأسطورة القديمة والملحمة، وظلا يوظفان من لدن الأدباء بوصفهما وسيلتين مهمتين لتقليص الفوارق بين ما تحكيه اللغة وبين تفاصيل الواقع المعقدة، حيث أن استخدامهما يجعل القارئ يغوص في عوالم تحاكي العالم الحقيقي وتقربه أكثر فأكثر، اقترابا يتماشى مع براعة وموهبة منتج النص. في هذا السياق،

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

يبرز الروائي نجيب محفوظ بوصفه واحدا من أبرز الروائيين الذين عُرِفوا بتوظيف الرمز والخيال، وهذا ما يتجلى خصوصا في روايته المتميزة والتي أثارت كثيرا من الجدل: "أولاد حارتنا" حيث يبرز بقوة الرمز الديني الذي استمده من قصص الأنبياء، عبر عديد الرسالات والمحطات، بداية من آدم عليه السلام، المُعبر عنه في الرواية ب: " أدهم" وصولا إلى خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، الذي أحال إليه ب: "قاسم"، حيث عمد نجيب محفوظ إلى تمثل واستلهام المحطات الرئيسة في تاريخ الأديان، وإسقاطها على شخوص روائية أبدعها، وجدت حركيتها في وقائع ويوميات "حارة" مصرية، بوصفها فضاء مناسبا لتجسيد الحبكة الروائية.

لقد عمد الروائي العالمي نجيب محفوظ توظيف قصص الأنبياء بوصفها رمزا دينيا داخل المتن الروائي، بطريقة مُستترة خارج إطار المباشرة والخطابية، الأمر الذي يجعل من اكتشاف العلاقات وتبني الإحالات مسألة تأويلية صرفه، يقوم بها القارئ الحصيف الذي يملك ثقافة أدبية ودينية على حد سواء، عبر الإحالة إلى أوجه الشبه، التي لا ترتبط بشخصية واحدة وإنما تتعدها إلى شخوص الرواية، وكذا إلى أسماء هذه الشخوص، والأحداث المحركة لزمن الرواية.

إن هذه الخصوصية التي تربط بين ما هو أدبي وديني، تُعَد في حد ذاتها أهم الأسباب المؤثرة في التشكيل اللغوي للرواية، وسببا رئيسا في انتقاء مفرداتها وتحديد صياغاتها تماشيا مع طبيعة شخوص الرواية، التي تحوز على علاقة مُماهاة وتضمين مع الشأن الديني عبر تجلياته المتعددة، في إشارة إلى تشابه وفي الوقت نفسه تعدد المضامين والتجليات اللغوية تبعا لتعدد الأديان والثقافات.

إن الإحالة اللغوية للشأن الديني لا تعني بالضرورة إشارة للخير وعوالم الفضيلة فحسب، يُمكن إدراك هذه الثنائية في ثنايا الرواية، لكن يُمكن أيضا إدراك عوالم الشر، من خلال رموزه وإشاراته على مستوى اللفظ والمعنى، ومثال ذلك إشارة نجيب محفوظ للثعبان بوصفه رمزا للنفاق، الأمل والخطورة، هذا ما يُمكن إدراكه في لفظ "الثعبان" الوارد في رواية أولاد حارتنا (طبعة 1986) عبر محطات عديدة، على غرار:

"وما أنت إلا غريب في بيت الثعابين."... "وما خاف الثعابين قدر خوفه" (ص: 163)

"يا لك من ثعبان ولكن كن ثعبانا غير سام."... "والثعبان لا يلدغ إلا عند الخوف." (ص: 64)

"... ثم ترسلاه بجراب الثعابين." (ص: 165)

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

وفي السياق نفسه، استخدم نجيب محفوظ، في إحالة إلى عوالم الخير والنقاء لفظ الصراحة ومشتقاتها بوصفها رمزا للمروءة، الوضوح والاستقامة، الأمر الذي يُعبر من خلاله عن مقصدية الدين المرتبط أساسا بتجلية معاني الخير في الحياة الإنسانية، الأمر الذي يُعبر عن فلسفة قائمة بذاتها، تهدف أساسا إلى جعل الصدق نقطة محورية، هذا ما تُحيل له المحطات التالية:

"أصارحك بأني أحبك أكثر.." (ص: 167)

"من حقك الآن أن أبادلك صراحة بصراحة." (ص: 165)

"إنه سيعيش حتى يصرح بمكنونه." (ص: 163)

((وإلا حجرة رفيقه مروض الثعابين.)) (نجيب محفوظ، 1986: 163).

إن استخدام هذه المفردات المتناقضة والمتمثلة في كلمة الصراحة كرمز للخير ثم الثعابين رمزا للشر، ومروض الثعابين رمزا للحكمة والموهبة، جعل الخطاب مشوقا، بسيطا ومفهوما، كما سهل إيصال المعنى للقارئ، وفي الوقت نفسه أعطى جمالية للنص، وأبرز أكثر البعد الفلسفي المتمثل في المفارقات التي تسود هذا العالم الذي تختصره الحارة وشخوصها.

إن من يتمعن في الرموز الدينية المستوحاة من قصص الأنبياء، ثم يقارنها بشخوص الرواية في الحارة، يدرك أن الكاتب استخدم لغة دالة تقرب الرمز الديني، بالشخصية الروائية التي ترمز إليه، ليس فقط عبر صفات الشخصية ومعالمها وما تحمله من قيم، بل تعدى ذلك إلى تقارب الرمز والدلالة على مستوى اللفظ والمعنى، هذا ما يمكن إدراكه من خلال:

أدم --- أدهم

إبليس --- إدريس

رفاعة --- عيسى الذي رفعه الله

جبل --- موسى الذي كلم الله في الجبل

قاسم --- محمد والذي كنيته أبو القاسم

عرفة --- رمز المعرفة والعلم

بناءً على ما سبق، يتضح من خلال طبيعة اللغة الروائية المستعملة أن الاسم "يستدعي عالمين: المباشر وهو شخص الرواية الحقيقي، والمجازي وهو نظيره المختلف عنه والمتشابه

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

معه في حكاية الوجود. ومنذ البداية نجحت لعبة هذا التوازي: فأدهم لا يختلف كثيرا عن أدم على المستوى الصوتي، وإدريس شديد القرب من إبليس." (صلاح فضل، 1995: 181).

وهي مقاربة لغوية فريدة ميزت اللغة الروائية، حيث استخدمها نجيب محفوظ في إطار الرواية الفلسفية لربط التاريخ وأحداثه والدين وقيمه بالواقع والحاضر الذي تعيشه الحارة، وهذا ما جعل الرواية تحمل في ثناياها تفاعلا وتجاذبا بين عوالم الأسطورة والتاريخ والدين، وتناسب الكثير من القراء على مختلف مشاربهم خصوصا الفلسفية والأدبية.

هذا، وتجدر الإشارة إلى وجود رؤية مُعارضة للسياق السابق ترى أن الإفراط في استخدام الرمز والخيال في الرواية يجعل منها بعيدة عن الواقع المعيش، وما يتميز به من تفاصيل يومية مختلفة عن الحقب الماضية، خصوصا عند الإنسان المعاصر الذي أصبح ميالا إلى الإجرائية والبراغماتية، أما على مستوى الأدب والفن، فقد أفضى الأمر إلى زيادة الميل لقراءة للأصناف الأدبية التي توصف بالحقيقية أو الفنية من سير ومذكرات شخصية وكتبات وثائقية غير خيالية قد تخدم مشاريعه الفكرية أو تزيد من ثقافته، لأنها تستخدم في معظم جوانبه لغة واصفة تسرد الأحداث كما هي في الواقع. وعلى العكس من ذلك كان الرمز والخيال في أولاد حارتنا سببا رئيسا في تألقها، حيث أبدع نجيب محفوظ توظيفهما لمحاكاة الواقع ونقده، كما أن النمط الأول لا يترك هامشا كبيرا لمنتج النص سوى لبعض الآراء والتأملات ويغيب فيه الخيال، الذي كثيرا ما خدم اللغة الروائية والروائي على حد سواء، حيث يوفر هامشا كبيرا لإطلاق العنان للمخيلة، مما يعطي لمنتج النص نوعا من الحرية والقدرة التعبيرية على مُستوى الفكر واللغة. كما أن لغة الرمز والخيال غالبا ما تكون مشفرة تحتمل التأويل، حيث تستفز فكر القارئ وتدعوه لاستخدام عقله كونها تتحدث عن شخوص وأحداث مُتخيلة، وهذه إحدى مظاهر تأثيرات الفلسفة والتكوين الفلسفي للكاتب على لغته الروائية على غرار ملا يُلاحظ في رواية أولاد حارتنا، كما أن الخيال في أولاد حارتنا عُدَ متنفسا للقارئ، وملاذا يلجأ إليه هروبا من ضغوط الواقع وهمومه، إذ "ما أكثر المناسبات التي تدعو إلى ترديد الحكايات، كلما ضاق أحد بحاله، أو ناء بظلم أو سوء معاملة، .... " (نجيب محفوظ، 1986: 5).

ثالثا: اللغة والرؤية الكونية: في الخلفية الفلسفية للغة الروائية

إن نظرة نجيب محفوظ الفلسفية لما حدث في العالم منذ نشأته إلى غاية الزمن المعاصر، ورؤيته لصراع الإنسانية مع الوجود ومع الحياة ودور الدين والرسالات السماوية

والعلم من كل هذا، وصراع الخير والشر، ثم نقده للظلم والكراهية والقتل وصنع الطغاة، ثم الدعوة إلى الاعتماد على الدين والعلم في التعامل مع مختلف الأزمات خارج إطار التغني بأمجاد الماضي، كل هذا تجسده وتمثله شخوص الرواية وأحداثها، حيث أنها "لم تناقش مشكلة اجتماعية واضحة كما اعتدت في أعمال قبلها، بل هي أقرب إلى النظرة الكونية الإنسانية العامة." (رجاء النقاش، 1998: 141-142).

بناءً على ما سبق، فإن من يقرأ رواية أولاد حارتنا قراءة معرفية ونقدية، سوف يُدرك أنها استمدت عالميتها وكونيتها من التكوين الفلسفي والأدبي لكاتبها في مقام أول، ثم من قدرته على التخييل والإبداع، وقد تجسد ذلك في استخدامه الواسع للرمز المتمثل في الدين والرسل وما حدث لهم عبر الزمن، ومقاربته بما يحدث في الحارة، إضافة إلى القيم التي تحملها الرسالات السماوية، فهي تدعو دوما للتوحيد والسلام والأخوة بين البشر، هذا ما تُبرزه على سبيل المثال لا الحصر هذه العبارة الواردة في الرواية: "لم يستكبر في الأرض، وكان بالضعفاء رحيما." (نجيب محفوظ، 1986: 6). كما أن مختلف الشرور والأزمات مصدرها جشع البشر، ثم إن صراع الخير والشر يُعد سمة بشرية ارتبت بتاريخ الإنسانية رغم اختلاف الأزمنة والأمكنة والظروف.

لقد قدمت لغة نجيب محفوظ الروائية بأبعادها الفلسفية في أولاد حارتنا خدمة جلية للرؤية الكونية، التي يُمكن الاستعانة بها في حوار الأديان والحضارات، بحكم التمثيل الوارد لعموم الديانات الرئيسية أو بالأحرى الإبراهيمية، ذات الأصل الواحد. ولأنه لا يُمكن فصل اللغة عن الرؤية بِحكم أنها وسيلة التعبير التي تتوضح من خلالها الرؤية في شكلها الظاهر أو المستتر، فإن عنوان الرواية "أولاد حارتنا" بوصفه العتبة النصية الأولى يُحيل إلى رؤية كونية ذات أسس محلية، فـ: "الأولاد" في إحالة إلى الكثرة والتعدد والتنوع، وكذا إمكانية التصويب والإنضاج المستمر، أما "حارتنا" فالأمر متعلق بالإجرائية والمكانية المسنودة على النسب والانتماء.

رابعا: اللغة الروائية والمرجعية الدينية:

ثمة إشكالية في الكتابة الروائية، تلك المتعلقة بالروائي بوصفه كاتبا محايدا، أو متكلما على لسان شخصية أو شخوص، ضمن هذا السياق عمد نجيب محفوظ إلى إخفاء شخصية مُنتج النص داخل المتن الروائي، وحاول إبعادها عن الأحداث لتركها تتفاعل بمنأى عن الذاتية، إلا أن ذلك لم يمنعها من الطفو بين الفينة والأخرى، الأمر الذي يُعلن

بشكل أو بآخر عن حضور الإيديولوجيا، علما أن "... الإيديولوجيا تشكل جزءا من النص الأدبي، كون الأدب يدخل إليها كأحد مكوناتها، أي العلاقة بينهما علاقة تبادلية في التأثير والتأثر. " (إبراهيم عباس، 2014: 57).

لقد اتضحت الثقافة الدينية لنجيب محفوظ بحكم دراسته وتخصصه في التصوف، حيث انكشفت نزعته الدينية في ظاهريتها من خلال المفردات الكثيرة المستوحاة من الحقل الديني ومن اقتباساته الدينية، التي تنم عن تشبعه بالثقافة الإسلامية وتأثره بها كأحد أهم مشاربه المعرفية،" ...، يا من لم ينم من الليل إلى أقله" (نجيب محفوظ، 1986: 164).

"... فليحرقهم رب السماوات جميعا،..." (نجيب محفوظ، 1986: 172).

كل هذا جعل الكاتب يعرف أكثر بثقافة مجتمعه، وبالعمل الروائي العربي ويدفعه نحو الكونية، كونية لا تبتعد كثيرا عن كونية الدين الإسلامي المتمثلة خصوصا، في التسامح وتقبل الأخر، مما أعطى روايته قوة وصبغة عالمية وأخرجها من ضيق الحارة إلى أوسع الأفاق، مقدما إضافة للسرديات العربية الحديثة والمعاصرة، "... فقد تخطت الرواية العربية أمر الانغلاق على حكاية شفافة مكتفية بذاتها، إلى مزيج متنوع من الأحداث والوقائع التي لامست المرجعيات، وأعادت إدراجها متناثرة في سياقاتها السردية، مما يؤكد الإمكانيات الهائلة للسرد المنخرط في معمعة البحث والاكتشاف، والمتورط في قضايا التاريخ والواقع... " (عبد الله ابراهيم، 2013: 323).

خامسا: الأبعاد الفلسفية للغة الروائية: المفهوم والتجليات

إذا كانت دراسة اللغة عموما وتحليلها أمر فيه عوائق كثيرة نظرا لتعدد اللغات واختلاف المنتجين لها، وكذلك القراء والنقاد وتنوع مشاربهم وإيديولوجياتهم، فإن الأمر يصبح أكثر تعقيدا حينما نتحدث عن اللغة الروائية، كونها توفر هامشا أوسع للأديب للتعبير عن أفكاره ومكنوناته بعيدا عن القيود الأكاديمية في ما يكتب وكيف يكتب، خصوصا لما يتعلق الأمر بكبار الروائيين مثل نجيب محفوظ الذي تلقى تكوينا فلسفيا ساعده في صقل موهبته وتنوير خياله برصيد مُعتبر من المناهج والمعارف الفلسفية والنقدية.

إن من يقرأ رواية أولاد حارتنا سوف يدرك أولا عبقرية نجيب محفوظ، حيث تشكل هذه الرواية فسيفساء من الأفكار الفلسفية المختلفة والمتنوعة، وتحتوي مستويات لغوية متعددة تنم عن مهارة منتجها وتشبعه بثقافة فلسفية عالية وبمشاعر إنسانية راقية.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

لقد تميز نجيب محفوظ في مختلف أعماله الروائية بقوة اللغة وقدرتها على الإيحاء والدلالة، انطلاقا من طبيعة المتن الروائي ومن طبيعة الشخوص التي تُعلن عن قناعاتها وفلسفاتها عبر اللغة. كما أن توظيفه اللغوي عبر عن تدفق وسلالة تبعا لتكوينه المعرفي في هذا الإطار، زيادة على سعيه الحثيث للوصف، الأمر الذي يُعطي الاهتمام بالرواية أو الحكاية أكثر من كاتبها. في هذا الإطار يُمكن الحديث عن عبارات ذات دلالة أو حكم يتم استخرجها من العمل الروائي، كما هو حاصل في "أولاد حارتنا" وهي العبارات التي تجمع بين قوة اللغة والتعبير من جهة، وقوة الدلالة والإيحاء من جانب آخر.

وفي ما يلي بعض الأمثلة:

"أبصق على الماضي بكل ما فيه." (نجيب محفوظ، 1986: 166)، وهو تخريج لغوي يُسمى الانزياح أو التشخيص المعنوي، حيث يُحيل إلى ما هو معنوي بجعله محسوسا ومُجسدا.

"...طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه، وقرارك الغريب سيجعلنا أحدوثة..." (نجيب محفوظ، 1986: 15)، حيث تمت شخصنة الجماد، عبر إشارة حيازته على مشاعر وأحاسيس.

"واكفهر الوجه الكبير حتى حاكى لونه النيل في احتدام فيضانه، وتحرك صاحبه كالبنيان، مكورا فيضه من صوان. " (نجيب محفوظ، 1986: 16)، استخدام مفردتي اكفهر واحتدام، ثم استخدام النيل عبر الإحالة للغضب.

في السياق نفسه، اتسمت اللغة الروائية الواصفة في الرواية محل الدراسة بكثرة الأحوال والنعوت، ومثال ذلك: "... كان رجلا لا يجود الزمان بمثله، وفتوة تهاب الوحوش ذكره." والقول: "...مازلت أجد الحديث عنه شائقا لا يمل." (نجيب محفوظ، 1986: 6).

أما على صعيد تعدد مستويات اللغة، فإن القارئ لرواية أولاد حارتنا يلتمس أنها تتضمن عدة مستويات لغوية، والتي عادة ما ترتبط بلغة الرواية في شكلها العام، أو لغة نجيب محفوظ الذي يملك أسلوبية خاصة، حيث يمكن أن نستشف لغة فنية راقية على مستوى انتقاء المفردات والإحالات إلى المعاني، وهي لغة صاحب النص أثناء الوصف والسرد، ونلتمس فيها الكثير من التمكن الذي تبرزه الصور الإبداعية الجميلة. وفي مقام ثان تبرز لغة الشخوص، وهي لغة حوارية تُحيل في معظمها إلى لغة الشارع المصري في حارات القاهرة. في هذا الإطار يُمكن القول بأن لغة الشخوص قد شكلت "أربع مستويات

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

تقع بين الأحادية والازدواجية، فإما أحادية الفصحى، أو العامية، أو الجمع بينهما، أو اختيار لغة ثالثة أو وسطى." (محمد خرماش، 2006: 82).

وفي إطار خصوصية اللغة الروائية، وظف نجيب محفوظ الرمز، التشفير والمجاز المرسل لتفادي المباشرة في القصدية، وباعتبار العمل الروائي عملا إبداعيا تخييليا على الرغم من إحالاته الواقعية الممكنة، وهذا لتفادي التطابق المباشر بين الرموز الدينية وبين ما تُحيل إليه الرواية، ليترك مجالا أوسع للقارئ، مما يُمكنه من ممارسة حريته التفسير والتأويل، الأمر الذي يُفضي إلى إمكانية القول بالتأويل في سيرة جبل على سبيل المثال لا الحصر، حيث "انتقل فيه المؤلف من أسلوب الجناس الناقص في التشفير إلى طريقة المجاز المرسل المكاني، لأن مشهد الجبل الذي تجلى فيه الرب لموسى هو الذي يميز رسالته" (صلاح فضل، 1995: 181).

إن الاستعمال الروائي للغة، جعل من نجيب محفوظ واحدا من كتاب الرواية البارعين، حيث تُعبر في مقام أول تمرس وخبرة وقدرة على توظيف الرمز الذي يتضمن رسائل فكرية تنم عن تكوين نجيب محفوظ الفلسفي العميق.

في السياق نفسه، ثمة مستوى آخر للغة الروائية عند نجيب محفوظ، يُعبر من خلاله عن فلسفة واقعية تستند أساسا إلى القوة، القوة هنا بوصفها دلالة مقاومة وإثبات حضور أمام مُعضلات الحياة وعوائقها، الأمر الذي يُفضي إلى تأجيج فعل المقاومة والاستعداد للطارئ والمفاجئ، واستحضار القلق والتمزق، وكذا إثباتا للحضور، وهو ما ينعكس على اللغة الروائية عبر تحقق سمة الواقعية أو فلسفة اليومي في اللغة الروائية (عثمان بدري، 2000: 140):

"في جلباب خشن مشمر وسطه بحزام غليظ (...) وعلى شعره الغزير طاقية عتماء." (نجيب محفوظ، 1986: 183).

"هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر أم الدنيا..." (نجيب محفوظ، 1986: 5).

إن استخدام المصطلحات القوية والمعبرة في الوصف يُدعى في النقد بعنف اللغة وشدتها، وهذا ما نجده في معابر متعددة من الرواية، الأمر الذي يُضفي سمة مُختلفة تعطي ألقا للغة والمتن الروائي على حد سواء.

إن السمة السابقة، قد ساهمت في تشكيل نمط تعبيري يُعبر عنه على الصعيد النقدي بالتكثيف أو تقنية المشهد أو تعدد المشاهد، حيث يمكن الحديث عن تكثيف

تعبيري وكذا تعدد للمشاهد في فقرة أو فقرات محددة، حيث يمتزج الوصف والسرد والحوار. هذا ما يُمكن أن نجده عبر تعدد المشاهد في الفقرة: "واستقل عربة كارو .....وتجاهلتها في الطريق." (نجيب محفوظ، 1986: 240).

وبمقابل التكثيف، ثمة تقنية تعبيرية أخرى مرتبطة بالكتابة الروائية، وهي تقنية تجاوز الأحداث أو الحذف، عبر الإحالة إلى الاختزال والاختصار، ومثال ذلك ما نجده في قوله: "ثم مدو أيديهم للتعاقد في حماس، وفي رجاء. وعلمت الحارة بعودة جبل." (نجيب محفوظ، 1986: 181).

وفي السياق نفسه، لم يبتعد نجيب محفوظ عن استعمال إجرائي ووظيفي لغة الحارة المصرية في عفويتها وبساطتها، في مختلف محطات الرواية، محاولا في ذلك إبراز موروثه الثقافي الذي تُقدمه الحارة، الأمر الذي يدفع إلى القول بأن ".. الرواية ليست تجسيدا للواقع فحسب، ولكنها فوق ذلك موقف من هذا الواقع." (إبراهيم عباس، 2014: 58). هذا ما يُمكن إبرازه في العبارات التالية التي تُعلي من شان الثقافة الشعبية:

" ... هتاف غلمان يترنمون:

يا ولاد حارتنا توت توت

أنتو نصاره ولا يهود

تاكلو إيه ناكل عجوه

تشربو إيه نشرب قهوة." (نجيب محفوظ، 1986: 225)

" أنت ... يا ما تحت الساهي دواهي.." (نجيب محفوظ، 1986: 239)

إن استعمال اللغة الشعبية بما تقتضيه الضرورة الروائية، جعل هذا الإنتاج ينسجم مع السائد اجتماعيا في الحارة، وهو أحد أهم الأهداف التي تصبو إليها الفلسفة المعاصرة، خصوصا فلسفات ما بعد الحداثة التي ترنو إلى معالجة أسئلة اليومي، وعدم الابتعاد عن الواقع الإنساني المعيش، بما في ذلك واقع اللغة المستعملة اجتماعيا.

سادسا: البيان والبرهان: أو في حوار البلاغة والمنطق

رغم أن البيان أحد ميزات الأدب بمقابل البرهان الذي يُعد سمة فلسفية غالبة، بيد أن قراءة متفحصة لرواية "أولاد حارتنا" تُفضي إلى إبراز لتفاعل ظاهر وخفي بين آليتي البرهان والبيان عبر كامل الرواية، أو بالأحرى بين البلاغة والمنطق.

لقد أجاد الكاتب توظيف البيان خارج إطار التكلف، الأمر الذي أضفى جمالية تعبيرية انعكست إيجابا على طبيعة اللغة الروائية، عبر استخدام حصيف للصور البيانية كالاستعارة والمجاز والكناية، وهو الأمر الذي يُعطي للفكرة الروائية حضورها الجمال، ومثال ذلك: "... وسمعت آخر يقول عنه: كان فتوة حقا، ولكنه لم يكن كالفتوات الآخرين، فلم يفرض على أحد إتاوة، ولم يستكبر في الأرض..." (نجيب محفوظ، 1986: 6).

وفي السياق نفسه، كان نجيب محفوظ بارعا في تسخير التقنيات اللغوية الأخرى على غرار الوصف بمستوياته – المادي والمعنوي- والحوار بأنواعه – الداخلي والخارجي- في خدمة الخطاب الحجاجي في سمته الروائية، الأمر الذي أفضى إلى تجلٍ لأفكار فلسفية أبانت عنها الرواية، على غرار الدعوة إلى تعميق وتأصيل جملة من الفضائل مثل العدل، المحبة والتسامح.

هذا، وقد تجلى الخطاب الحجاجي في مقام ثانٍ من خلال حوارات الشخوص، حيث تُعبر كل شخصية عن فلسفتها وقناعاتها، في حين يتجلى الحجاج أكثر في ضوء المواقف الحوارية التي تتضمن الموقف والموقف المضاد، مثل ما جرى بين الجبلاوي وابنه الأكبر إدريس من نقاشات حادة.

إن التداخل الوظيفي بين مختلف آليات اللغة وتقنياتها من حوار ووصف وغيرها، قد أعلن عن حضور متأصل للحجاج، الأمر الذي أفضى إلى تبرير انتماء الرواية للأدب الفلسفي، وكذا الحال بالنسبة لطبيعة اللغة الروائية بوصفها لغة "برزخية" تعيش المنزلة بين المنزليتين، أقصد هنا الأدب والفلسفة، مما يُفضي إلى إمكانية الحديث عن فلسفة لغة أو بالأحرى فلسفة لغوية ذات سمات خاصة، "والواقع أن فلسفة اللغة تنحو في منطلقاتها إلى الاقتراب من النماذج في مختلف تجلياتها والتي يبررها ارتباطها بالموضوع بهدف تحقيق غاية التجلية والفهم." (بشير خليفي، 2010: 187)

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن رواية أولاد حارتنا لم تسلم من النقد في سمته الأدبية والفلسفية وذلك بوصفها عملا إبداعيا، أفضى إلى قراءات وتأويلات مُتعددة، على غرار من يُشير إلى سمتها الدينية الطافحة، أو من يتحدث عن رمزيتها بحكم إشارتها الخفية للوضعية الاجتماعية زمن كتابتها. وفي المقابل، اعتبارها "رواية محرمة" بحكم نعتها بتجاوز المحظور من خلال التجديف والسعي للتشييء من خلال انتهاك حرمة المقدس الديني، ابتداء من الذات الإلهية التي رأى البعض أنها تتماهى مع شخصية "الجبلاوي،": "...البيت

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الكبير الذي شيده الجبلاوي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق." (نجيب محفوظ، 1986: 11).

خاتمة عامة:

تبدو اللغة الروائية لرواية أولاد حارتنا في مستواها الأولي لغة أدبية جميلة تصف واقع حال منتجها والمتمثل في يوميات الحارة، حيث يُمكن تصنيفها في مقام أول ضمن إطار الأدب الواقعي على الرغم من السمات الرمزية الظاهرة. وما دامت اللغة تحيل إلى الفكر، ومن ثمة إلى المضمون، فإنها تُعبر عن عالم قائم بذاته، هو عالم الحارة، وشخوصها تحمل هواجس فلسفية كثيرة وذات جذور فكرية قديمة، وتحتمل قراءات متعددة، ولها جانب ظاهر وآخر ضامر، فرغم أنها لا تحتاج في بعض ما تحمله من أفكار لقارئ متخصص، إلا أنها في أحيان أخرى تحتاج للكشف عن ما تخفيه ثناياها من نزعات إنسانية ومعرفية لمتلق نوعي أو ما يسمى بالقارئ الضمني في نظرية التلقي، وهو الذي يحسن قراءة مابين السطور أو ما وراء اللغة، خصوصا مع طبيعة الاستخدام الذي أبرز عن حضور تقنيات لغوية كثيرة، وتيارات فكرية متعددة.

كل هذا جعل اللغة الروائية لنجيب محفوظ في أولاد حارتنا عصية على التصنيف، فهي تتفرد في كونها تناسب جمهورا واسعا من القراء، حيث يمكن وضعها في خانة اللغة الشعرية الجمالية، الصادرة عن أديب مبدع متمرس، والتي يبحث عنها المتذوق للصنعة والمهارة اللغوية.

كما يمكن اعتبارها لغة مفكر يحمل هموم مجتمعه وتؤرقه مشكلات التخلف، وهذا ما يتواءم مع دور المصلح الاجتماعي. وأحيانا تبدو خطابا متمردا على الدين والأصول يحمل دعوة للتفتح والإباحية من خلال تناوله للمقدسات بطريقة جريئة، ثم تحتمل وصفها أنها دعوة مفكر ملتزم يدعو لتغيير الواقع بالعودة للدين والعلم كحل أمثل لفك معضلات الحياة، وهي القراءة الأقرب حسب رأي عدد من النقاد، فلغتها المتعددة المستويات والفنيات جعلتها رواية مشفرة تحتمل عديد التأويلات والإيحاءات ذات خطاب يتجدد تفسيره وتأويله كلما تجددت قراءته، فيمكن تشبيهها بلوحة الموناليزا التي لها من كل زاوية نظرة مختلفة، فهي تستحق لقب رواية فلسفية بامتياز كونها وليدة تفاعل الأدب بالفلسفة، ويلتقي فيها الفكر والدين والأدب الشعبي والأسطورة، وهذا ما جعلها مشوقة ورفع نسبة مقروئيتها.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

لذلك، وبناء على ما سبق، يمكن القول أنه إذا كانت ميزة اللغة الأدبية هي الخيال والتعبير عن المكنونات والوجدان، وميزة اللغة الفلسفية هي العقلنة والشك والجدل والبرهنة، فإن اللغة الروائية المتأثرة بالفلسفة داخل الرواية الفلسفية لأولاد حارتنا هي صنف ثالث يجمع الصفتين معا، فهي لغة أدبية رائعة تتصف بكل مظاهر الجمالية الإبداع والشعرية، وتحمل في الوقت نفسه داخل طياتها هواجس التفلسف كونها عالم من الأفكار والمعارف والمنطق، فهي لا تصف الواقع فحسب بل تعطي أيضا الكثير من الإجابات والمواقف عن عديد المشكلات التي تقض مضجع الإنسان كالدين، المصير، الحرية، المسؤولية والمرأة.... وغيرها....

ثم إن الفرادة توظيف تقنيات السرد الروائي، خصوصا التكثيف والتجسيد اللتان تخدمان المشهد، منحتا هذه الرواية -على غرار مثيلاتها في المرحلة الفلسفية لنجيب محفوظ - صفة القابلية للتحول إلى عمل درامي، وهو الأمر الذي لم يتجسد إلى اليوم بسبب ما أثارته الرواية من جدل على مُستوى المضمون. لكنها بالمقابل حولت إلى فيلم إذاعي من إنتاج الإذاعة المصرية.

أخيرا، وليس آخرا، نخلص أن نجيب محفوظ قد نجح في رهان تجريبه، المتمثل أساسا في المعالجة الفلسفية للموضوع الأدبي، الأمر الذي أبان من خلاله عن تأثيرات واضحة المعالم لتكوينه الفلسفي على المتن والمعمار الروائي، وكذلك من خلال إنتاجه لغة روائية متميزة، وصفت بالمجددة، جدد من خلالها الخطاب الروائي العربي المعاصر، مُعطيا إياه بُعدا عالميا.

***

المصادروالمراجع:

- ابراهيم عباس، (2014)، **كتاب الرواية المغاربية تشكل النص السردي في ضوء البعد الإديولوجي**، ط1، الجزائر: دار كوكب للعلوم.

- بشير خليفي، (2010)، **الفلسفة وقضايا اللغة قراءة في التصور التحليلي**، ط1، الجزائر: الدار العربية للعلوم.

- رجاء النقاش، (1998)، **نجيب محفوظ صفحات من مذكر اته وأضواء جديدة على أدبه وحياته**، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر.

- عبد الله ابراهيم، (2013)، **السردية العربية الحديثة الأبنية السردية والدلالية**، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

- عثمان بدري، (2000)، **وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ**، ط1، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.

- محمد خرماش، (2006). **سيميولوجيا القراءة وإشكالية التأويل**، سيميائيات، مجلة دورية محكمة، جامعة وهران، الجزائر، العدد2.

- نجيب محفوظ، (1968)، **أولاد حارتنا**، ط6، بيروت: دار الأدب.

- صلاح فضل، (1995)، **شفرات النص، دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد**، ط2، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

- Ambrose Alice, Lazerowitz Morris, (2004), **Ludwig Wittgenstein: Philosophy and Language,** London, UK Psychology Press.

- Michel Raimond, (1989), **Le Roman**, Paris, France, Armand Coulin.